المذهب الروحاني

مدرسة القرن العشرين

مجلة المقتطف مدرسة جمعة يتتلمذ عليها كثيرون من المفكرين وينتفع بها اكثر قراء العربية انتفاع اهل الغرب بما لديهم من امهات المجلات — ولعل هذا ما حدا بي ان اتعجل لموضوع المذهب الروحاني بعد ان قرأت ما نشرتهُ مجلة المقتطف من المساجلة التي دارت بين السر اوثر كونن دويل والمستر مكابب وما اسلفتْ نشرهُ في ما مضى من السنين وفي العهد الاخير للسر اولفر لودج وغيرهِ من فحول العلم وعمد الفلسفة في هذا العصر — ومما عنّ لها هي ان تعقب بهِ على كل هذه الآراء المتضاربة المختلفة الاشكال والالوان

وما نبغي الاسهاب في موضوع نحن نميل كثيراً الى الاعتقاد بانهُ سيكون مدرسة القرن العشرين وانما نحن نريد ان نلمع الماعاً بما وفقنا اليهِ في هذا الباب وعسى ان يهيء لنا القدر موقفاً آخر نستطرد البحث فيهِ لنظهر القراء على اسباب الخلاف القائم بين انصار المادية واشياع الروحانية. هنالك تطمئن نفوسنا وتستريح ضمائرنا وهنالك نكون قد ادّينا ما نحسهُ من واجب وما نشعر بهِ من حق

نقول : لقد نضجت المادية في القرن التاسع عشر وقويت مدرستها واتسع نطاق نفوذها فهيمنت على المشاعر والمعتقدات وملكت على الناس مفاوز حساسيتهم وتولت طرائق تفكيرهم فحالت بينهم وبين كل ما دونها بما كان لها من هيمنة وسلطان على الماهية الادراكية من جهة والقوة الوجدانية من جهة اخرى . على حين انا نرى ان هؤلاء قد عاشوا في جلودهم اكثر من عيشتهم بوجداتهم وتفكيراتهم . وعلى ان « ما بعد الطبيعة » لم يعدم من بين المفكرين واهل العلم من كان يؤمن بهِ ويؤبهُ لهُ في كل مكان وفي كل زمان وان اختلف ذلك باختلاف العصور والادوار التي مرّ بها التاريخ

ولقد يخيل الينا ان ظل المدرسة المادية قد اخذ يتزايل وبدأ يروغ وان مدرسة المذهب الروحاني تقوى كل يوم وتشتد بمن يدخلونها افواجاً افواجاً من وقت وبعد حين — من اقطاب المدرسة المادية وفحول العلم وعمد التفكير من

المعاصرين المشهورين — اولئك الذين لا ينطقون عن الهوى . ولقد يخيل الينا ان السبب في انتشار المذهب الروحاني في بعض بلاد العالم دون البعض الآخر وعلة رواجه في الشرق هو لانهُ لا يتعارض مع الاديان ولانهُ يصادف هوى في نفوس المتدينين بما يدخلهُ عليهم من الانتعاش والعزاء وبما يقوي فيهم من الايمان بالعالم الدائم. وما اتعس هذه الحياة التي هي لشبه الاشياء بمقدمة طويلة عريضة لا نتيجة لها — اذا كانت حياتنا تنتهي عند عتبتنا هذا الدور الحزن المحوط بكل انواع الشقاء وتختم بالموت الذي ما بعدهُ حياة فتبدل الستارة على مقدمة من غير نتيجة

ولقد سمعت بعضهم يقول : دعني اعيش مع الوهم وامتع بما يصورهُ لي خيالي من النعيم المقيم جنة الفردوس ادخلها واعيش فيها ابد الابدين — دعني في خيالي اكفكف بهِ ألم هذه الحياة وارفه عن نفسي وطأة هذه الحياة الدنيا واسرّي عنها ما يصيبها من الشقاء والبأساء — فاذا كنت غرقاً ولم يكن لهذا كلهِ من وجود فيحي فاني اذن لم اخسر شيئاً ولكني مع هذا اكون قد هونت على نفسي مصائب نصادفها وخففت عنها مصاعب تعترضها في سبيل تدرجها . على انا لا نجري مع هؤلاء حتى في شوطهم هذا وانما نحن نريد ان نندمج في حسّنا ونعمل على الوصول الى الحقيقة النسبية من طريق الرقي الوجداني بتهذيب النفس وترقية الوجدان وتقوية الملكة الادراكية

تقول واذا كان العقل المجرد لا يمكن ان يسلم بهِ اصحاب المذهب المادي دعواهم في ذلك انهُ لا عقل من غير مادة وان المادة الحسية الظاهرة هي التي تعرف بها اعمال العقل والروح والنفس واشباه ذلك . فانا نؤمن ان احتياج العقل او النفس الى المادة ضروري لنا لاننا نعيش مندمجين فيها منكرين كل ما عداها — والاندماج هذا يوجه كل قوانا الى المادة فلا نرى الاَّ بها ولا نفهم الاَّ من طريقها . وما نريد ان نستدل باهل الكشف وأصحاب مذهب التصوف والواصلين من المتوجهين اولئك الذين يرون بعيونهم سكان بعض العوالم الاخرى ويشاهدون حقائق لا تقوى ابصارنا المادية الصرفة على مواجهتها ولا تستطيع بصائرنا الحسية على الاحاطة بها لما يقف قبالها من مستير الطبيعة ومغاليق هذا الوجود . وإنما ما نذهب اليهِ وما نريدهُ من المفكرين — أن يتمشوا معنا في طريق العقل ويصلوا

الظواهر البيّنة التي تظهر في العالم والتي ينحصر عمل العقل في تعليلها وادراك كنهها واستكشاف بواعثها ومسبباتها

يريدون ان تصبح مسألة الارواح مسألة آلية صرفة ويريدون تعليلها بعقول منفعلة مستقادة وهم يعلمون حق العلم ان الاثير وهو الوساطة الوحيدة التي توصل بين اطراف العوالم جميعها والذي يرجع اليهِ وجود التماسك والانسجام والمغناطيسية والنور والكهربائية والجاذبية ايضاً على رأي ابنشتين — يعلمون ان الاثير هذا يقف العلم امامهُ مكتوف اليدين وهو الذي لا بدَّ من دراستهِ دراسة تامة لمن يريد ان يدرس محتملات العالم الروحاني لانهُ الصلة القائمة بين عالمنا المادي والعوالم الروحانية الاخرى ولانهُ لا بد لنا ان نعبر هذا البوغاز لنصل الى المحجوب الذي كثرت في وجودهِ الشكوك والريب

يلوح لنا ان العلم لا يزال يحبو في مهدهِ والعقل الذي بهرهُ ما وصل الى استكشافهِ — من تسخير الهواء والماء والكهربائية والانتفاع بقوى الطبيعة — يلوح لنا انهُ لا يزال يتخبط في دياجير الدجى الحالكة ومعميات الوجود فكلما وفق الى ظاهرة انسها حقيقة وقف منتشياً متباهياً شاعاً — ولكنهُ لا يلبث هنيهة ان يرتطم في صخرة تضيع عليهِ جهودهُ وتنبههُ الى غرورهِ وتوقفهُ عند حدهِ

يقول الفيلسوف الانكليزي المعروف هربرت سبنسر ان العقل الانساني لم يصل الى كشف اسرار الطبيعة وانما ما وصلنا الاَّ إلى ادراك وتعليل الكليات وأما الجزئيات فلا يزال سرها نامماً . قول حق واعتراف صريح ولكن العقول العاتية الجبارة ترغب في المزيد ولا تقنع الاَّ بالموجود المحسوس ثم هي من بعد ذلك لا يرضيها كل تعليل ولا تتقبل ما يجيئها عن طريق السماع او التواتر

الشك أول خطوة يخطوها المخلوق صوب اليقين ولا يكون اليقين يقيناً حقاً قائماً على دعامات قويمة متينة الاَّ بعد الشك . والتفكير والتأمل الطويل والبحث والاستقراء كلها شؤون اباحتها الاديان بل أوصت بها — هذا هو الكتاب المقدس يقول (فتشوا الكتب لانكم تعتقدون ان لكم فيها حياة ابدية) . وهذا هو القرآن الكريم يقول : (وفي أنفسكم افلا تفكرون ؟) . لذلك نحن لا نستهجن من غير المؤمنين بالعالم الروحاني طرائق ابحاثهم وامتحاناتهم بتحقيقاتهم ولا نريدهم ان يعملوا معنا من غير بحث ولا اقناع وانما نحن ننكر عليهم حججهم التي

يتمسكون بها حيال هدم هذا المذهب وكلها قائمة على انهم امتحنوا انساناً يدّعي الانتماء الى الروحانية فاذا انسوا الاّ مهارة وتلاعباً وشعوذة . وليس هذا يقوم دليلاً صحيحاً عند العقل والفرق كبير بين المذهب والمتمذهب به. وليس من الصواب في قليل ولا كثير ان اري مذهباً بالعطل واتهمهُ بالبطلان لمجرد وجود بعض الناس ممن يدعون زوراً انتماءهم لهُ ولمجرد ان يخفقوا اماي في عمل يقومون بهِ. والمذهب شيء والمدعي الانتماء اليهِ شيء آخر فكم من متدين اساء الى دينهِ بادعائهِ انهُ من مظاهر هذا الدين وكم من مواطن اساء الى وطنهِ لتصرف يبدو منهُ فيحكم الحاضر على الواطنين جميعاً على هذه الشاكلة. والمذهب الروحاني مدخول بكثير من اللاعبين والادعياء الذين يعيشون بالشعوذة والتحضير وجلب المحبة . وما كان هذا ليؤثر في جوهرهِ لانهُ قائم بجوهرهِ يدل على وجودهِ بالامتحان والاستعداد

ان خطأً كبيراً ان يعتقد البعض بان كل انسان يجب ان تظهر لهُ الارواح عياناً بياناً في بهرة الشمس والناس يختلفون امزجة ويتباينون في استعدادهم وليس المائع الحيوي فيهم على نسب متساوية . وكذلك كانت الفروق بين انسان وانسان كثيرة متباينة فقد يرى الانسان مالا يراهُ الآخر لما فيهِ من الاستعداد الطبيعي وقد يكون غيرهُ بحاجة الى تفوق ومران ليصل الى ما يصل اليهِ غيرهُ فجأة ومن غير عناء ولا نصب . وخطأ كبير ان نتصور ان المزاج الواحد يكون بحالة واحدة ابدية دائمة دائبة وما كان امزاج حتى الانبياء سواسية في كل حين — لذلك لا يمكن ان نصيب مرمى الحقيقة اذا نحن حكمنا على الروحاني بمجرد جلسة واحدة فقد يختلف المزاج فيهِ وقد تختلف الروحية عندهُ فكان اول لنا ان نتريث في الحكم ونجري على قاعدة (كانت) الفيلسوف في الامتحان وفي اصدار الاحكام

لقد قرأت بعض ما وقفت اليهِ جماعة المباحث النفسية في بلاد الانكليز وقرأت اعتراض المعترضين على مذهب الارواح فعلمت ان جوهر الاعتراضات وعنورها يدور حول نقطة واحدة هي اهم ما يوجه نحو ظواهر الاتصال الروحانية واثر ما تظهر بهِ — نعم تسائل الذين يحضرون الجلسات ويرون باعينهم فعل الطاولة او التنويم او استحضار الارواح فيجيبونك ان هذا انما ينشأ من انتقال الافكار وتوافق الشعور وان ما يقع من النائم او من فعل الطاولة انما هو من اختلاط

الامزجة لان الناس اجتمعوا في جماعة واحدة وخضعوا لتأثير واحد فاصبح اكثرهم خاضعاً لمؤثر واحد وصار سهلاً جداً ان ينتقل فكر الواحد الى الآخر بتيار عصبي او مائع حيوي يصل الامزجة بعضها ببعض ويكون وساطة لذلك

ولقد حضرت جلسات كثيرة من انواع مختلفة لهذه الشؤون انا ذاكر هنا نوعين لجلستين اثنتين تفندان هذا الزعم . حضرت جلسة تحريك الطاولة في دار أحد اصدقائي وقد صحبت معي احد الافاضل وكان شغوفاً جداً بهذه المسائل وطلبت اليهِ ان يحضر اسئلة يعرضها وقت الجلسة واشرت اليهِ ان يصرف ديناراً قطعاً صغيرة من القروش ويتركهُ في مكان من دارهِ حتى اذا حان وقت اتجاهنا الى مكان هذه الجلسة كبش كبشة من هذه القروش دون ان يحيط بعدّها علماً وجعلها في جيبهِ — وفعلاً كان ذلك فلما ان سأل الطاولة كم معي من القروش وكنا جميعاً نجهل ذلك وهو ايضاً لا يعرف عدد ما في جيبهِ اجابت بالنقر عددها تماماً فاخرج ما في جيبهِ وعدّهُ فاذا بها صادقة وهو ما يفند دعوى انتقال الافكار

اما الحادثة الثانية فقد وقعت امامي في دار احد الوجهاء — (لا اذكر اسمهُ لاني لم استأذنهُ في ذلك) وكان يستعمل الوساطة اليدوية وكنا نجتمع عندهُ كل ليلة ولقد برّز ونجح كل نجاح في ذلك وادهشنا بامور سنذكرها بعد ان نستأذنهُ. ذلك ان كان معنا الاستاذ الجليل الشيخ طنطاوي جوهري — وقد القى على اليد سؤالاً فقال للحاضر وكان من اهل فرنسا ان كتاباً لهُ قرظتهُ احدى صحف باريس يريد ان يعرف اسم هذه الصحيفة ويريد ان يستجليها فاجابتهُ الروح انهُ قرظ في صحيفة كذا وانهُ اذا ارسل الى فلان العالم الفرنسي العضو بالاكاديمية الفرنسوية فانهُ يبحث لهُ عنهُ ويبعث لهُ بهِ فاجابهُ الاستاذ ولكني لا اعرف الرجل فكيف اخاطبهُ في ذلك . فاجابتهُ الروح انهُ يرد عليك اذا انت كتبت اليهِ قالت ومع ذلك فانهُ صديق صديقك اسماعيل باشا صبري — فاسألهُ واطلب اليهِ ان يكتب اليهِ هو الآخر . وكان الاستاذ خالي الذهن بالكلية من اسم الرجل الفرنسوي وعنوانهِ وعلاقتهِ بالباشا فاخذ يكتب الاسم بالضبط وثمرة المنزل واسم الشارع والوظيفة وكل ما قالت بهِ الروح وهرول في اليوم الثاني الى دار الباشا وسأله عما اذا كان يعرف انساناً من علماء فرنسا فاجابهُ بما انطبق تمام الانطباق مع ما في يدهِ

ان هذا لدليلاً ظاهراً على هدم نظرية انتقال الافكار واتحاد الامزجة لاننا جميعاً ما كنا نعلم ولا كان في خواطرنا وضمائرنا شيء من كل ذلك فمن اين اذن كل ذلك

لعلنا أطلنا الحديث على القارىء الكريم فنستميحهُ عذراً في ذلك على أن تكون لنا عودة في الحديث بما يكون اكثر وضوحاً ان شاء الله ولكل انسان وجهة هو موليها

حسن حسين

فصل الخطاب في مسألة الارواح

ذكرنا في مقتطف يناير (صفحة ٥٧) ان مجلة السينماتوغرافك اميركان تبرعت بخمسة آلاف ريال تعطي نصفها لاول وسيط يُظهر امام لجنة تعين لذلك روحاً من ارواح الموتى تصوّر صورة فوتوغرافية صحيحة يقتنع اعضاء اللجنة أنها صُوّرت في احوال لم يكن للغش ولا للخداع من يد فيها. وتعطي النصف الآخر للوسيط الاول الذي تعمل الروح بواسطتهِ عملاً روحيًّا يقتنع اعضاء اللجنة بصحتهِ .اي يراد بهذه الجائزة اثبات ظهور الارواح ومخاطبتها وتجسمها اثباتاً ينفي كل ريب

يقول البعض أن ارواح الموتى تظهر للاحياء وتخاطبهم اما بصوت يسمعونهُ ولو لم يسمعهُ احد غيرهم او بقرع الموائد قرعاً حسب حروف الكلمات التي تريد الروح مخاطبتهم بها او بتحريك ايديهم لتكتب ما تريد مخاطبتهم بهِ وقد تخبرهم بامور مستقبلة او تنبئهم بحوادث حدثت في اماكن بعيدة عنهم او تكشف لهم المخبآت وتعلمهم بالمجهولات وتتخذ صورة مادية حتى يمكن ان تلمس وتصوّر صوراً اذا رآها احد يعرف صاحبها لما كان حيًّا عرف انها صورتهُ ولو كان قد مات منذ عهد بعيد . ويزيدون على ذلك ان هذه الارواح تخلق اشياء لم تكن موجودة كفنجان الشاي الذي خلقتهُ مدام بلافتسكي في بلاد الهند مماثلاً لفناجين أُتي بها من بلاد الانكليز [1] .فينسبون الى ارواح الموتى كشف المجهولات ومعرفة الغيب وخلق المواد والتقمص باجسام ماديّة. ولا ندري ما ابقوا للخالق. واذا رأوا من ينكر عليهم ذلك قالوا انهُ مادي ينكر وجود الارواح ووجود الخالق ايضاً . ولا

(١) انظر مقالة مسهبة في هذا الموضوع موضوعها المستحضرات نشرت في مقتطف نوفمبر سنة ١٩٢٠